Coptology

لماذا تعثر شرح الثالوث القدوس؟

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠١٥

www.coptology.org

مقدِّمة

منذ أن التحقتُ بالقسم النهاري للكلية الإكليريكية عام ١٩٥٧، وعقيدة الثالوث هي اهتمامي الأول. وبدأت بدراسة رسائل الشهيد أغناطيوس الأنطاكي، وكانت قد نُشرت في مجلة الكرمة، وهي إحدى ثمار عمل الأستاذ حبيب جرجس، وهو أحد رواد النهضة القبطية. ومن رسائل أغناطيوس الأنطاكي، ندرك حقيقةً ثابتةً عند كل الآباء شرقاً وغرباً، **وهي أن الثالوث استُعلِن بتجسد الابن وبحلول الروح القدس.** وعلى هذه الحقيقة الثابتة، بنى كل الآباء، إمَّا شرح عقيدة الثالوث، وإمَّا الدفاع عنها.

وحسب التسليم الكنسي المدوَّن والذي سُلِّم إلينا في كتابات الآباء، **استعلان أُبوة الله هو في تجسُّد الابن. واستعلان بنوة الابن الأزلية هو في أركان التدبير: التجسد، الصلب، والقيامة، والصعود وحلول الروح القدس**[١].

الأساسُ -إذن- هو تجسد ابن الله، واستعلان الابن، وعلى هذا الأساس، تمَّ شرح نصوص العهد القديم، كما تم أيضاً إدراك عمل الروح القدس الذي عمله في العهد الأول؛ لكي يرتِّب للعمل في العهد الجديد، وهو تقديم الابن واستعلان المتجسِّد، والمصلوب، والحي، ورأس الجسد الكنيسة والحال في المؤمنين، إلى الانسانية، بل إلى الكون كله. وهو تقدمُة المحبة الإلهية الأزلية المستعلَنة في هذا الدهر في زماننا؛ لكي تدخل الخليقة كلها، وأولها الإنسانية في شركة أبدية مع الآب بواسطة الابن، ومن خلال عمل الروح القدس.

المحاولات التاريخية لشرح عقيدة الثالوث بعد عصر الآباء:

بعد كتابي القديس كيرلس السكندري في الشرق -الكنوز، وحوار عن الثالوث- ترك لنا القديس أوغسطينوس خُلاصة التعليم الغربي عن الثالوث. وقدَّم لنا بشكلٍ مباشرٍ، وغير مباشر، ماريوس فكتورينوس — هيلاري اسقف بواتيه، ثم كتابه هو عن الثالوث.

---

(١) سبق أن أشرت إلى هذا في كتاب المدخل إلى اللاهوت الأرثوذكسي. أنظر الطبعة الثانية، القاهرة ٢٠١٢ — منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية.

غير أن الحروب وعدم الاستقرار كانت هي السبب الأول في الهجرة إلى العصر الوسيط في الشرق، حيث أُغلِقت المدارس، وحدث انكفاءٌ على الذات، وانحصر الرجاء في الرغبة في البقاء على قيد الحياة، وانقطع نقل ودراسة الكتابات القديمة، فوُلِدَ العصر الوسيط الشرقي الذي ابتعد عن لاهوت انطاكية في سوريا الكبرى، والإسكندرية في مصر، بدليل أن ما وصلنا من كتابات سريانية وقبطية ثم عربية، يشهد بانقطاع التواصل مع تراث الآباء السابقين. وحتى مؤلفات الدمشقي تخلو من الإلهام الذي نراه عند النزينزي، إذ لم يأتي الدمشقي بما هو حيوي وهام، بل اقتصر على جمع التسليم الكنسي، ولسببٍ غير واضح، أهمل تقديم مكسيموس المعترف. ثم ضاع التراث اليوناني والقبطي بعد ضياع مكتبة الإسكندرية، وهجرة مدرسة الإسكندرية إلى الإسقيط، حيث استقرت في دير الأنبا مقار، ولذلك لم يكن الأمر صدفةً عابرة، أن عُثِرَ على برديات الحوار عن الثالوث للقديس كيرلس الكبير في دير الأنبا مقار.

وقد شَغَلَ الجانب الدفاعي عن عقيدة الثالوث، اهتمام علماء العصر الوسيط. وعلى الرغم من أن أبو اسحق بن العسال، وهو من علماء العصر الوسيط الأقباط، كان يجيد اليونانية، فقد اهتم بترجمة العهد الجديد إلى العربية، ولكنه لم ينقل إلينا تراث الآباء الذين كتبوا باليونانية إلى العربية؛ لأن مؤلَّفات هؤلاء الآباء، يبدو أنها لم تكن موجودة؛ لأن دمار الإسقيط الذي كان مركزاً من مراكز التعليم اللاهوتي، حدث أكثر من مرة، حيث تعاقبت عليه فترات التدمير على يد القبائل الرُّحَّل الوافدين من ليبيا، ويبدو أنه لم ينجُ من التدمير الذي أصاب مصر في الغزو الفارسي في القرن السادس، والذي دمَّر مصر تدميراً لم تتعافى منه.

أمَّا الذين انشغلوا بالدفاع عن عقيدة الثالوث مثل يحيي ابن عُدي والبوشي وغيرهم، فكان هاجسهم الأول هو الدفاع. على أن اقتصارهم في الدفاع على الرد على قضية التوحيد والتثليث، ودفع شُبهة تعدُّد الآلهة، أدَّى بهؤلاء المدافعين إلى إهمال الكتابة عن استعلان الثالوث في تجسُّد الابن؛ بالرغم من تعرُّض التجسُّد نفسه لنيران معارضة سخيفة. ويمكننا أن نلخِّص الموقف في عبارة واحدة، فقد اختفت ملامح التدبير، وتحوَّلت العقيدة إلى صراع فكري فلسفي تراه في كتاب "الواحد والوحدة" لأبو نصر

الفارابي[١]. وقد تأسَّس هذا الصراع على ما استقر في الفلسفة اليونانية الكلاسيكية عند أرسطو، وما تطوَّر بعد ذلك في ذات مدرسة أرسطو، لا سيما بعد أن نقل العلماء السريان الأرثوذكس والنساطرة كتابات أرسطو إلى العربية، وإن كانت الترجمة نُسِبَت إلى علماء مسلمين[٢].

ما غاب من الجانب الدفاعي:

أولاً: اقتصر الجانب الدفاعي –كما قلنا– على محاولات الإقناع العقلية بأن الثلاثة واحد، وأن البنوة روحية مثل صدور النور من قرص الشمس ... الخ. وبالرغم مما انطوت عليه هذه المحاولات من جهد، إلَّا أنها –في نهاية المطاف– لم تقدِّم الخلاص، ولم تفتح باب التذوُّق، أي تذوُّق شركتنا في الثالوث، ونوال عطية التبني من الابن بالروح القدس.

ثانياً: ترك الجانب الدفاعي، الليتورجية، في حين **أن الثالوث مُعلَنٌ لنا في الليتورجية. والقُدَّاسات هي استعلان الثالوث في حركة العطاء والشركة**؛ لأن الثالوث هو حياة الله المتحرِّكة دائماً نحو الإنسانية لكي تفتح هذه الحركة المملوءة بفيض المحبة، عطايا لا يملكها الإنسان، وليست في متناول الطبائع المخلوقة كلها، وأولها الإنسان.

وبالرغم من **أن الليتورجية هي استعلان الثالوث في تقديم حياة الابن في سر الشركة**، إلَّا أن اسم "سِرِّ الشركة، أي الإفخارستيا، أو التناول"، قد غاب أيضاً عن هذا الجانب الدفاعي.

وليس ذلك فقط، بل غاب أيضاً الاستعداد الروحي الذي فيه –وبواسطة رأس الكنيسة ربنا يسوع المسيح– ندخل في شركة مع الآب بالروح القدس، واكتفينا بالاحتراس الجسداني، وهو ساعات الصوم — الاستحمام — الامتناع عن العلاقات الزوجية. وهو ما وصلنا واستقر لدينا – للأسف– من العصر الوسيط، ثم أضاف العصر الحديث إليه، فرشاة الأسنان.

---

(١) نشر النص محسن مهدي في الدار البيضاء ١٩٨٩.

(٢) القول بأن علماء المسلمين هم الذين قاموا بترجمة كتابات أرسطو إلى اللغة العربية، هو قولٌ غير صحيح بالمرة؛ لأن الذين تمكَّنوا من دراسة وقراءة اليونانية كانوا من السريان في العراق وسوريا وجزء من بلاد فارس، ولم يكونوا من العرب، وإن كان بعض علماء المسلمين قد قاموا بمراجعة وضبط الترجمة العربية، ولكن دون العودة إلى الأصل اليوناني.

كل ذلك أدَّى إلى عدم الوعي باستعلان الثالوث في الليتورجية. فاليوم، إذا سألت ١٠٠ شخص يواظبون على حضور القُدَّاسات، إذا ما كانوا قد سمعوا عن تعليم باستعلان الثالوث في القُدَّاسات، فسوف تجد أن ٩٩ % منهم لم يسمعوا، بل لم يعرفوا هذه الحقيقة الإلهية التي تبدأ بـ "مجداً وإكراماً للثالوث القدوس"، وبعد تمجيد الثالوث الواهب المجد والكرامة لنا نحن البشر، ننادي: "واحدٌ هو الآب القدوس، واحدٌ هو الابن القدوس، واحدٌ هو الروح القدس".

ثالثاً: تسبب تحوُّل الأقنوم إلى صفة من صفات جوهر اللاهوت في خسارة كبرى، ألا وهي فقدان المحبة الأقنومية أو الشخصية. ذلك لأن اللاهوت الدفاعي يصارع لإثبات ثلاث صفات ذاتية أو جوهرية، ليس من بينها المحبة!!! في حين أن "الله محبة" (١يوحنا ٤: ٨، ١٦)، وهو حياة، وهو هنا ليس شخصاً + صفات، بل شخصٌ يعلن عن شخصه، أو أقانيمه بعلاقة المحبة، وهي حياته وجوهره.

رابعاً: فات الجانب الدفاعي أن اللغة لا تسبق الوجود؛ لأن البنوة سابقة على اللفظ. الطبيعة تسبق كل المصطلحات، بل كما يقول أثناسيوس نفسه: "المصطلحات لا تسبق الجوهر أو الطبائع، ولكن الطبائع أولاً، والمصطلحات ثانياً" (الرد على الأريوسيين ٢: ٣). ونحن لا نتعرف على ما هو موجود بالمصطلحات، بل بالعلاقة، والعلاقة هي التي تحدد المصطلحات وتختارها. ولذلك، كلُّ حوارٍ أو بحثٍ عن المصطلحات يتجاهل العلاقة، يصبح مجردَ لغوٍ وضياع وقتٍ وسفسطة، مثل تلك التي اشتهر بها بعض المثقفين القدامى، كأن تكون هناك محاولة لإثبات وجود شيء، أو إثبات عدم وجوده، فقط بالحوار اللفظي[١].

فعندما أهملنا عطية التبني ومعها عطية الحياة، وقبل التبني، استعلان المحبة الإلهية، جرى البحث عن الثلاثة والواحد على النحو الذي نراه في كتاب أبي نصر الفارابي. ولم يظهر إلَّا عدة مقالات موجزة عن المحبة عند أوغسطينوس في كتاب الثالوث (الكتاب ٥،

---

(١) هناك قصة مشهورة لها دلالتها في هذا السياق عن متصوفٍ كان يجلس بجوارِ نهرٍ يتأمل جريان الماء، وجاء واحدٌ من الرعاع وصفع المتصوف على قفاه صفعةً قويةً، بعدها قال له في صفاقةٍ: ما هو مصدر الصوت، أي صوت الصفعة، هل هي يدي أم قفاك؟ وهنا أجابه الصوفي: يجب أن أصفعك أنا على قفاك؛ لعل الألم هو الذي يجيب على سؤالك الغبي.

و٦، و٧)، ولم يلتزم أوغسطينوس باستعلان المحبة التي استُعلِنَت في تجسد الابن، أو في صَلبه، أو في قيامته؛ لأن القيامةَ جعلت التجسد محبة أبدية للبشر، بل اقتصر عمل أوغسطينوس على مناقشة المحبة وقوامها وعملها بشكل فلسفي.

الأُلوهة حركةٌ دائمةٌ، وهي حركةُ المحبة

الألوهة هي حركة المحبة، وهي حركة دائمة. يبدو هذا بأكثر وضوح عندما يصف أثناسيوس الرسولي الله بأنه ينبوع، وأنه لا يمكن للينبوع أن يكون جافاً (راجع ضد الأريوسيين ١: ١٤)، ولذلك، فإن ولادة الابن هي ولادة حياة مثمرة وليست عقيمة (ضد الأريوسيين ١: ١٩)، فالله إذن هو ينبوع الحياة والحكمة، وثمرة هذا الينبوع هو الحكمة أو اللوغوس أو الابن الأزلي.

ويظهر ذلك عندما تسبق ولادة الابن الزمان، فهي حركة في حياة الآب (وهي لذلك سابقة على اللفظ).

ويتضح هذا في إرسالية الابن الوحيد، التي عبَّرَ عنها الربُّ نفسه في مَثَل الابن الذي قتله الكرامون الأشرار، وهي حركة لم نتوقف عندها كثيراً، بالرغم من أنها مُتَّجهة نحو الإنسانية. يقول القديس يوحنا الرسول الإنجيلي:

"على هذا النحو أحب الله العالم

فبذل ابنه الوحيد

لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية" (يوحنا ٣: ١٦).

فالمحبة الباذلة، وهي ليست عبارةً، ولا هي مصطلحاً، ولا هي لغةً. المحبة الباذلة هي حياة الثالوث القدوس. والثالوث أقانيم وليست مجرد عبارات. قد تشهد لها الكلمات، ولكنها أعظم من الكلمات، كما نقول في صلاة الصلح: "عالٍ فوق كل قوة النطق ....". هذه المحبة نجد صداها يتردد في قلب الإنسان، في محبة الآباء والأمهات والأخوة والأخوات، بل تبدو هذه المحبة حتى في المحبة التي يبديها الأشرار مثل الزناة من أجل اشباع شهوة الزنى. المحبةُ ليست غريبةً على الإنسان. قد تنام تحت مركَّبات النقص، أو تحت جروحٍ في الطفولة، أو تعاني من انعدام الثقة بسبب خبرات مؤلمة لم تُشفَ،

ولكنها تظل بذرةً حيَّةً لا تموت، رغم أنها قد تتجه إلى الذات وحدها، كما في حالات متنوعة من النرجسية.

كذلك يجب أن ننتبه إلى أن الحلول الإلهي للروح القدس والسكنى، هما وصفٌ لحركة المحبة الإلهية. ولا يوجد أعظم من عطية الحياة والقيامة والغفران والتجديد والامتلاء من الروح القدس، في صلوات واستعلان الثالوث في القداسات.

ماذا حدث عندما أصبح الأقنوم أو الشخص صفةً جوهريةً؟[١]

أولاً: تحوَّلت العلاقة، من علاقة شخصية، أي أقنومية، إلى علاقة مبهمة غامضة. ويجب أن ننتبه إلى أن التعامل مع الصفة –حتى على المستوى الإنساني– إنما يجمِّد كل علاقة إنسانية ممكنة. وهنا أدعوك –قارئي العزيز– أن تحاول أن تجرِّب قَصر تعاملك مع أي شخصٍ تعرفه على ما فيه من صفات مثل الأمانة أو الصدق، أو أي صفة أخرى، فسوف تجد أن هذه الصفة جمَّدت العلاقة، وصارت هذه العلاقة –في النهاية– علاقة مجردة. لقد جاء التجريد من "اللا – شخص"، وبالتالي تدور العلاقة حول ما يُكتسب من معرفة الآخر، وقد تنهار هذه العلاقة، إذا ظهرت صفات سلبية مثل الكبرياء. أمَّا إذا بدأت العلاقة كعلاقة شخصية بغضِّ النظر عن الصفات، فلا شك في نموها فيما بعد.

عندما صار الآب هو الوجود، أو أي صفة أخرى، ولم نسأل كيف يجود الوجود بالابن الوحيد، وكيف يحب الوجود العالم، وكيف يرسل الوجود الروح القدس.. فقدنا العلاقة الشخصية بالثالوث، ودُرنا في فلكِ تصوراتٍ عقليةٍ لا تمت إلى الواقع بصلة، بالرغم من أن هذه الأفعال (يجود – يحب – يرسل)، هي أفعالُ شخصٍ لا أفعالٌ صادرةٌ عن صفة.

ثانياً: كلمة "أقنوم" السريانية هي ترجمة للكلمة اليونانية hypostasis، وهي أيضاً ترجمة للكلمة العبرانية "وجه". ومنها "وجه الله"، وهي تعود إلى إشراق كيان حقيقي

---

(١) راجع دراستنا بعنوان: هل الثالوث هو صفات الوجود والعقل والحياة؟ منشورة على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية.

هو وجه الآب، ووجه الآب هو يسوع المسيح الذي أشرق لنا بنور معرفة الآب (٢ كور ٤: ٦). وهذا هو المعنى وراء ما يطلبه الكاهن بعد وضع القربان على المذبح، حيث يقول: "اظهر وجهك على هذا الخبز"، فهو استدعاء أقنوم الله الكلمة، وهو نفسه حلول أقنوم الابن، "الذي أظهر لنا نور الآب. الذي أنعم علينا بمعرفة الروح القدس الحقيقية".

لقد سُكِبَ قدرٌ كبيرٌ من المِداد على الورق حول تاريخ الكلمة اليونانية واستعمالها وجرى حوله بحث ونقاش لا داعي للتعرض له، لكن ما يجب أن نلفت النظر إليه هو أن هذا النقاش خلا من التأكيد على أن الكلمة تعني "**وجود كيان حقيقي**"، أي **مَن هو كائنٌ**، وهو الحكمة – اللوغوس – الابن، ثم **مَن هو مُستعلنٌ** في زماننا، في شكلنا الإنساني، وحياتنا المائتة؛ لكي تُستَعلَن حكمته ومحبته في شخصه، في تجسده، وفي التعليم، وفي الموت لتحرير الإنسانية. هذه لا يجب أن تؤخذ على أنها صفات للأقنوم تُدرَس كموضوع مستقل؛ لأن الرسولي أثناسيوس يقول: "الله ذاته هو القوة" (ضد الأريوسيين ١: ١١).

ما أعظم الفرق بين أن نقول: "القوة + الله"، وأن نقول: "الله هو القوة". لأن "الله هو القوة"، هي العلاقة الشخصية، هي كيف تعبِّر القوة عن المحبة، وكيف استُعلِنَت قوة المحبة في تواضع الابن وإخلاء ذاته، وفي انسكاب الروح المعزِّي.

فالأقنوم هو كيانٌ مُستَعلَن ليس بلفظٍ، بل بما يُعطي. وعندما نهمل العطاء، لا نجد لدينا سوى اللَّف والدوران حول أصل واستعمال الكلمة.

الأقانيم الثلاثة

كل أقنوم له كيانه الخاص الذي لا يجب أن يختلط بالفرد Individual. خصوصية الأقنوم هي التمايُز، والتمايُز والشركة لا يمكن فصلهما.

والشركة هي استعلان التمايُز، كما أن التمايُز يؤسِّس الشركة، أو هو قوام الشركة. الابنُ مولودٌ دائماً من الآب، والروحُ منبثقٌ دائماً من الآب .. في الثالوث الآبُ هو جوهر الأُلوهة؛ وهذا يختلف تماماً عن الفلسفة؛ لأن الجوهر –فلسفياً– كلمة مجردة Abstract غامضة يمكن أن تُقال على أية كائنات تجمعها خواصٌّ مشتَرَكة، فتصبح

هذه الخواص هي الجوهر، مثل أن يكون جوهر الانسان -حسب أرسطو- هو الحياة – الحركة – العقل، أو الإدراك. وطبعاً ترك أرسطو الحرية.

ثالوثية الأقانيم هي ثالوثية المحبة الإلهية، من الينبوع الآب، من مياه الينبوع الابن، ومن عطية الحياة الروح، حسبما شرح الرسولي أثناسيوس في رسائله عن (الروح القدس إلى سرابيون: ١٩)؛ لأننا نحن نشرب، أو نأخذ من الينبوع، من الأصل، من الآب، من استعلان الآب في الابن، ومن هبة الابن لنا، أي حياته بالروح القدس، ويُستَعلَن الروح في هِبات أو مواهب -كلها كما وردت في الأسفار- هي تجلٍّ الخلق الجديد الذي رأسُهُ واستعلانه هو يسوع المسيح نفسه.

ما ورد عن المواهب في (١كو ص ١٢)، تلاه أعظم ما كُتِبَ عن المحبة في (١كو ص ١٣)، وكلاهما يرسم ملامح أيقونة الرب نفسه: كيف يخدم جسده، وكيف علينا أن ندرك أن هذه المواهب لا يمكن فصلها عن المحبة؛ لأن كل ما قيل عن المحبة في (١كو ١٣: ١-٨) هو عن يسوع نفسه، وما قيل في (١كو ١٢) عن المواهب هو عن أعضاء جسد المسيح التي أخذت حياتها من يسوع المسيح نفسه.

الثالوث والوحدانية:

ثالوثية الأقانيم ووحدانيتها هي الوجود والمصير الإنساني كله، هذه ليست قضية أرقام؛ لأن وجود اليدين والقدمين في جسم الإنسان ليس مسألة رقم، بل هو تنوُّع القدرة والحركة للشكل الإنساني الكامل. بالطبع، لدينا مَن يفقد ذراعاً أو قَدماً، ولكن هذا ليس هو الشكل العام الدائم لكل البشر، بل يُعد هذا شكلاً بشرياً ناقصاً، وبالرغم من ذلك، فقد يتفوق من فَقَدَ ذراعاً على مَن له ذراعين، ولكن هذا ليس مبدأً عاماً.

ويبدو الفشل في فهم ثالوثية الأقانيم في التقسيم المعيب الذي حدث في التعليم، والتركيز على أقنوم الابن، أو اقنوم الروح القدس، مع إهمال الاستعلان الكامل. الاستعلان الكامل، هو في الثالوث: في المصدر، في الاستعلان، وفي العطاء. ومِن عطية البنوة -على سبيل المثال- نحن "أبناء للآب في يسوع المسيح بالروح القدس". هذه

العبارة الموجزة تؤكِّد أننا دُعينا إلى حياة جديدة وعلاقة جديدة مع الله الآب. صرنا "أبناء"، هذه الصيرورة دائمة، وهي حركة حياة ومحبة تنقل الكيان الإنساني عندما يتلامس الإنسان مع الآب بواسطة الابن الذي -في تجسُّدِهِ- فَتَحَ لنا أحضان الآب. وبالشركة في الابن نأخذ الروح، القوة والعطية التي تعطي لنا "صورة المسيح"، وهي ليست فقط وصفاً خارجياً، بل هي أيضاً الكيان الذي تم خلقه من جديد ليكون مثل المسيح؛ ولذلك دُعي "صورةً"؛ لأن الأصل هو يسوع. وهذا ما يجب أن ندركه في أن الأيقونات هي صور، وأن الأصول هم القديسين أنفسهم. ونحن لدينا الأيقونة أو الصورة؛ لكي نبقى في شركة مع الأصول، مع النُّسَّاك والآباء والشهداء والأمهات الذين حفظوا لنا الإيمان بالدم والعرق والصبر والاحتمال والشهادة الحسنة.

ثالوثية الحركة:

تبدو ثالوثية الحركة في الحلول المتبادَل. و"الحلول" هو تعبير العهد الجديد: "الآب الحال فيَّ هو يعمل الأعمال التي أعملها أنا" (يوحنا ١٤: ١٠). "الحلول" هو عطاءُ الذات. الحلول ليس حركةً عمياء لصفات، بل هو حركة المحبة. عطاءُ ولادة الابن، وانبثاق الروح القدس. هي تلك الشركة التي بالحلول المتبادَل. إنَّ "أنا في الآب والآب فيَّ" (يوحنا ١٤: ١٠). و"أنا والآب واحد" يوحنا (يو ١٠: ٣٠)، تجعل الحياة الواحدة في حركة محبة دائمة.

+ عندما يولد الابن من الآب، تفيض محبة الآب للابن. والابن يُولد لكي يبقى في حضن الآب.

+ عندما ينبثق الروح القدس من الآب، تفيض محبة الآب ويعطي الروح للابن، ويحمل الروحُ الابنَ إلى الآب.

+ يظلُّ الآبُ هو الينبوع، وفيضٌ دائمٌ بالحياة والمحبة، ومنه يأخذ الابن والروح القدس.

+ عندما تجسَّد الابن، أدخل إنسانيته في الحياة الحرة المتحرِّكة وعطاء الذات الدائم الذي لا يتوقف؛ لأنه يشبه -مع الفارق الهائل- تنفُّس الإنسان. ولأن الابن

المتجسِّد هو الوسيط؛ دخلنا نحن في هذه الحركة، ولكن فيه هو؛ لأنه هو "البدء" و"الرأس".

الكيان الكامل:

الثالوث هو الحياة الكاملة لله. **هو الأصل والاستعلان والعطاء. الآب هو الأصل، والابن هو الاستعلان، والروح هو العطية.** كيانٌ كاملٌ صالحٌ لا يحفظ لنفسه صلاحاً ولا يستحوذ عليه، بل يمنحه للخليقة، ولتاج الخليقة وربِّها، أي الإنسان حسب (مزمور ٨). لا نقص فيه؛ لأن الأصل الفائق غير المستعلَن، هو الآب، ويبدو الكمال في أن غير المستعلَن يعطي ذاته في الاستعلان. **والاستعلانُ كيانٌ أو أقنوم.** استُعلِن الابنُ لكي يعطي، فتنال الإنسانية منه نعمة البنوة. البنوة هي كيان الابن، وهي للإنسانية نعمةٌ؛ **لأن ما هو كائنٌ في اللاهوت، لا كيان آخر له خارج الحياة الالهية،** والنعمة هي العطاء الإلهي الذي تدخل به الخلقة التي جاءت "من لا شيء" إلى الوجود. هذه الخلقة التي وجودها منحةٌ وهبةٌ، وهو ما وصفة القديس أثناسيوس الرسولي بأنه النعمة الأولى التي أُضيف إليها النعمة الثانية، أي نعمة الوجود، التي أُضيف لها نعمة الصورة، حيث يقول: "الله صالح، بل هو بالحري مصدر الصلاح ... تحنن على جنس البشر ... وأعطاه نعمة إضافيةً، فلم يكتفِ بخلق البشر مثل باقي الكائنات ... بل خلقهم على صورته". فمَن لا كيان له، والذي كيانه عائدٌ إلى هبة الخالق، لا يمكن أن يتساوى كيانياً مع الخالق في أي شيء. ولذلك، يردد الرسول بولس إننا "به نوجد ونحيا ونتحرك" (أع ١٧: ٢٨)، أي لنا كيانٌ حيٌّ متحرِّكٌ، وهو كله هبةٌ من الخالق. و"به" تعني أنه لا وجودَ خاصاً لنا يعود إلى كياننا، بل لا وجود لكياننا إلَّا بنعمة الوجود.

الكيان الكامل له أصل، وله استعلان، وله هبات أو عطايا. ولذلك، إذا رأينا بصمات الثالوث في الخليقة، فإننا منها نتعلم أنها صوَرٌ للأصل الكامل، وهو الثالوث.

الولادة من ذات، أو من جوهر الآب

لا يمكن أن نتكلم عن الله بلغةٍ إلهيةٍ؛ لأن كلَّ لُغات البشر نابعةٌ من الخبرة، ومن

تقدُّم الفكر، ومن نمو المعرفة، ومن التواصل مع اللغات الأخرى. في اللغة العربية –وكلمة لغة ليست عربية، بل عائدة إلى اليونانية– الكلمة العربية القديمة المهجورة هي "لسان"، ولا زالت "مدرسة الألسن" لدينا تتمسك بهذا الاسم القديم. ليس لدينا في أي لغة إنسانية كلمة عن صلة كيانية بين اثنين، سوى الآب والابن. وهي الصلة الكيانية التي تجعل الاثنين:

+ من ذات الطبيعة.

+ وكلاهما يشرح الآخر. فلا آب بلا ابن، ولا ابن بلا آب.

+ الاستعلان هو للبشر. ولا توجد كلمة أقرب إلى إدراك الإنسان من كلمة "ابن". بالطبع، هناك كلمات مثل "حكمة"، و"لوغوس"، وكلاهما هام، ولكن في صدد شرح العلاقة الكيانية، لا يوجد أفضل من كلمتي "آب وابن".

+ الاستعلان وُهِبَ للإنسانية، ووُهِبَ لكي يعيد الإنسانية إلى حياةٍ أعظم، ويحقق نمو الصورة الإلهية بعطية التبني.

الولادة والانبثاق:

كلاهما معاً استعلان تمايُز الابن عن الروح القدس، واختلاف اللفظ يدعِّم الوعي الانساني بتمايُز الابن والروح. **لكن الولادة والانبثاق هي حركة محبة الآب، أي المحبة التي تمارَس في جوهر أو في حياة الثالوث، وهي حركة لا يمكن فهمها إلَّا بواسطة التدبير**، حيث تُستعلَن المحبة الثالوثية للثالوث، أي محبة الثالوث لذاته، محبة الآب للابن والروح، وهي ذات محبة الابن للآب والروح، وهي ذات محبة الروح للآب والابن. هذا التكرار ضروري لتأكيد حركة الحلول المتبادَل الذي يحل فيه كل أقنوم في الآخر معطياً ذاته عطاءً كاملاً لكي يقابَل هذا العطاء بنفس العطاء الكامل. وعطاء الآب لأقنوم الابن هو الذي جعل الابن يحمل –مع ضعف التعبير– محبة الآب لنا، معطياً إيانا محبة الآب في كيانه. ولذلك، عندما يقول إنه هو والآب سوف يأتي لكي يجعل مكان إقامته فينا، فإنه –بكل يقين– يحمل معه وفيه الروح القدس؛ لأن حلول الروح القدس فينا بواسطة وساطة الابن هو تأكيدٌ على محبة الروح القدس الفائقة التي هي

ذات محبة الابن، ولكن الآن –بسبب التدبير– صارت هذه المحبة متَّجهة وفاعلة، وتحل في الانسانية بسبب وساطة رب المجد، ربنا يسوع المسيح.

عندما يسكن فينا الابن له المجد، يمكننا –بالروح القدس– أن نقول مع الابن: "أبَّا أيها الآب" (غلا ٤: ٤–٦).

وعندما نقول: "أبَّا أيها الآب" مع الابن بالروح القدس، فإننا ندخل هذه الشركة، شركة المحبة للثالوث، وتنسكب محبة الثالوث فينا (رو ٥: ٥)، ونذوق ما هو فوق الكلام وكل لفظ، بل وكل فكر، حلاوة المحبة الإلهية الأزلية.

السجود بالروح والحق:

السجود بالمعزِّي؛ لأننا في الحق، يسوع المسيح الذي قال: "أنا الحق". والسجود هنا ليس سجودُ العبيد، بل هو سجود البنين الأحرار. هو انسكاب وعطاء الحياة للثالوث. وحركة التسليم التي تتم بواسطة الجسد هذه، مُعلَنَةٌ بالمعزِّي الذي فيه وبه يُستعلَن الآب والابن. هذا يفوق قدرة الإنسان على التعبير. قال راهبٌ إسقيطي: هل يمكن أن تصف حلاوة العسل، سوى بأنه حلو، وأن حلاوته تعلو على أي حلاوة أخرى؟ العجز عن التعبير مصدره ارتفاع الاختبار إلى ما هو فوق اللفظ، وإلى ما نعجز نحن عن التعبير عنه.

ذلك التسليم هو لأبوة الآب، وهو ما يغرسه الروح المعزِّي فينا، وهو ما يفوق، بل ويعلو على اللفظ. هنا نعود إلى أصل الوجود الإنساني، إلى الثالوث، بقوة واستعلان الروح القدس؛ لأنه يُعلِن لنا بنوَّتنا للآب في الابن، ويقودنا إلى معرفة هذه المحبة الفائقة، حيث يقف الإنسان عارياً من كل تحديدات الفكر وكل الألفاظ؛ لأننا لا نبدأ بما نعرف، بل بما يُوهَب ويُستَعلَن، وهو استعلانٌ يقود الفكر، لا إلى صياغات، بل إلى تدفق المحبة الإلهية التي تزلزل كيان الإنسان؛ لأنه خُلِقَ من العدم، ولأنه لم يعمل أو يحقق شيئاً ما، يجعله أهلاً لفيض المحبة الالهية.

هذا هو السجود بالحق، أي بيسوع الحق الذي فيه ننال ملء حلول الله فينا.

ليس الثالوث بلا إرادة، وإلَّا يكون الإنسان قادراً على اقتحام الحياة الإلهية

والاستيلاء عليها. مَن قال بأن حلول الروح القدس فينا يجعلنا آلهة، كَشَفَ عن عدوانية واستيلائية تجعل الله –حسب فهمه– فريسةً أو أنثى تُغتَصَب. الاغتصابُ عملٌ قسريٌّ لا محبةَ فيه، وهو –بكل ما نعرفه عن الحياة العقلية والنفسية للبشر– ليس تصرُّفاً إنسانياً، بل هو تصرُّفٌ حيوانيٌّ يجعل صاحب هذا الإدعاء **Predator** حيواناً مفترساً.

نحن لا نحتوي الثالوث، ولا يحتوينا الثالوث؛ لأن الاحتواءَ اغتصابٌ **Rape** بل يحفظ الثالوثُ حريتنا؛ لأنه عندما تنعدم الحرية، تنعدم المحبة. والمحبة التي لا تطلب ما لنفسها (١كو ١٣: ٥)، لا يمكن أن تحتوي أحداً، بل بالصلاح والجود، تعطي لكي يخلص الإنسان من "وثنية الحرف"، ومن الصور المتراكمة عن الحياة الإلهية.

التبني بالروح القدس من الآب في الابن:

عطية التبني هي آخر مراحل تحوُّل الإنسان من العبودية للطبيعة، وهي عبودية دخلت مع الموت حيث الفناء، وهو انهيار الكيان الإنساني وتمزُّقه إلى جسدٍ في التراب وروحٍ في "الجحيم". أقول إن عطية التبني هي آخر مراحل تحوُّل الإنسان من العبودية للطبيعة، إلى الشركة في كيان الابن المتجسد.

إن نقلةُ الإنسان إلى الحياة الإلهية كإنسان، استُعلِنَت في الابن، ليس حسب أهواء وخيال الإنسان، بل حسب ما استُعلِن في تجسُّد الابن، في ميلاده، ومسحته، وغلبة الشيطان في البرية، وصَلبه، وموته، ودفنه، وقيامته، وصعوده إلى السموات. تحوُّل إنسانية المسيح إلى حياة مجد الابن الوحيد الذي مجَّد جسده بمجد الأُلوهة؛ لأنه نقل الطبيعة الانسانية إلى كيانه (أثناسيوس الرسولي: الرسالة إلى أدلفوس: ٤)، هو كيان الابن الوحيد لله الآب. والشركة في هذا الكيان، هي نقل الإنسان من عبودية الطبيعة. **لقد نقل الابنُ الإنسانيةَ فيه هو، فَجَعَلَ كيانه المتجسِّد هو استعلان التبني، ولأن هذا الكيان المتجسِّد نال الجسد من الروح القدس، فصار الروحُ يعطي لنا حياةً جديدةً هي عطية التبني**، وينقل أصل كل إنسان من آدم إلى المسيح، حيث يستقر كل إنسان إلى الأبد ابناً **أولاً** حُرَّاً من الطبيعة القديمة التي لها آليات العبودية وقانون الموت، أي آليات الخضوع والاستعباد التي جعلت الإنسان يظن أن خيالات الشر هي البقاء، وهي

وجوده الحقيقي، ولذلك يُستَعبَد؛ لأنه يظن أنها كيانه، بينما هو في الواقع الكيان المزيَّف الذي اخترعه الإنسان لذاته. **ثانياً**: خضوع الطبيعة إلى الشخص؛ لأن الإنسان قبل المسيح وقبل التجديد، كان يخضع إلى الطبيعة، إلى "أركان العالم" (كولوسي ٢: ٨)، أي إلى النظام الاجتماعي والسياسي .... الخ أي النظام الذي جعل "الإنسان خُلِقَ من أجل السبت".

لذا، **فعندما يُنقل التبني من حقيقة كيانية، إلى الإدعاء بأنه مجرد استعارة** مثل "ابن النيل"، أو "ابن الكرم"، **فلا شك أن هذا يُعدُّ هدماً لعطية الآب لنا في المسيح يسوع**؛ لأن الرسول يقول: "كل الذين قبلوه أعطاهم سلطاناً أن يصيروا أبناء الله". ولم يقف الانجيل عند هذه العبارة، بل بشَّرَنا بالخبر السار: "الذين ولدوا ليس من دم (من إنسان) ولا من مشيئة جسد (زواج) ولا من مشيئة رجل (بالإرادة الانسانية) بل من الله (١: ١٢-١٣). ولأنه لا توجد علاقة كيانية مع النيل أو الكرم، حَذَفَ الرسولُ كلَّ أشكال الولادة حسب الطبيعة، وحسب التوالد البشري، وبالقدرة الإنسانية.

ولأننا أخوة الرب؛ فهو "بِكرٌ بين أخوةٍ كثيرين" (رو ٨: ١٩)، فهو البِكر، ليس بالاستعارة ولا بالتشبيه، بل بحقيقة تجسُّده؛ لأنه شابهنا في كل شيء، واشترك معنا في ذات "اللحم والدم" (عب ٢: ١٤).

وعندما ننال روح التبني، أي روح يسوع - روح الابن، فهذه ليست علاقة أدبية، بل علاقة كيانية: "أرسل الله روح ابنه إلى قلوبنا صارخاً يا أبَّا الآب" (غلا ٤: ٦)، فالروح هو الذي يهبنا هذه الشركة؛ لأنها ليست شركة بيولوجية جسدانية، بل روحية إلهية من الآب.

(يتبع)

د. جورج حبيب بباوي